سيدنا موسى عليه السلام وطلب العلم

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 17 يناير 2021

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

في سورة الكهف، تلك السورة التي نقرأها كل يوم جمعة، تذكر لنا الآيات من الآية 60 إلى الآية 82 قصة من قصص سيدنا موسى عليه السلام، ونحن من خلال تلك الآيات لا نستطيع أن نعرف زمان تلك القصة، فمتى حدثت ؟ وحتى المكان فإنه نوعًا ما مبهم، إذ يُذكر في الآيات الكريمة أن أحداث تلك القصة بدأت في منطقة تعرف أنها ما بين البحرين، ولكن لا تذكر الآيات التفاصيل أو المكان بالتحديد، وربما ذلك أفضل لأنه ربما لو عُرف المكان لأصبح مزارًا اليوم، ومكانًا مقدسًا يزوره آلاف البشر، لذلك نجد أنه من الأفضل أنه مكان غير معروف ولا معلوم.

تفتح الستارة على القصة وسيدنا موسى عليه السلام يقول لغلامه أنه لا بد أن يبلغ منطقة معينة من الكرة الأرضية، حتى ولو قضى جزءًا من الدهر وهو يبحث عن تلك المنطقة، ولكن كيف بدأت تلك الحكاية ؟

يمكننا أن نتعرف على بداية الحكاية من الحديث النبوي الشريف الذي يرويه البخاري في صحيحه، إذ يُروى «... عن رَسول اللَّه صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ أنه قالَ: قَامَ مُوسَى خَطِيبًا في بَنِي إسرائيل فقيلَ له: أيُّ النَّاسِ أعْلَمُ ؟ قالَ: أنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عليه إذْ لَمْ يَرُدَّ العلْمَ إلَيْه، وأوْحَى إلَيْه: بَلَى عبد من عِبَادِي بمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هو أعْلَمُ مِنْكَ، قالَ: أيْ رَبِّ، كيفَ السَّبِيلُ إلَيْه ؟...».

ونحسب أن سيدنا موسى عليه السلام كان يعتقد أنه أعلم أهل الأرض في زمانه على اعتبار أنه نبي مرسل، وأنه يمكن أن يأتيه علم من السماء في أي لحظة وفي أي موضوع خفية عن الناس، فهو الذي يستطيع أن يجيب وأن يُعلم، ولكن من الواضح من سياق الحديث النبوي الشريف أنه ومن خلال الحوار الذي دار بين اللّه سبحانه وتعالى وسيدنا موسى عليه السلام أنه سبحانه وتعالى يريد أن يوضح للنبي عليه السلام ولنا كذلك على مر التاريخ محدودية علم الإنسان، وأن العلم لا ينتهي عند أحد معين، ففوق كل عالم عليم، فلا يوجد إنسان يعلم كل شيء، فالعلم واسع، وبحر لا قرار له، فمهما علم الإنسان وتعلم إلا أنه لا بد أن يكون فوقه شخص آخر أو أشخاص آخرون يعرفون أكثر منه حتى ربما في تخصصه هو، وكان هذا الكلام حافزًا قويًا لسيدنا موسى عليه السلام ليطلب من اللّه سبحانه أن يرشده على ذلك الرجل الذي هو أعلم منه، وكان ذلك.

هذه الأحداث حدثت في الكواليس نحن لا نعلم عنها إلا من خلال هذا الحديث النبوي الشريف، وإنما ما نعلمه يقينًا ما ذكر في سورة الكهف والتي تبدأ حينما قال سيدنا موسى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَو أَمْضِيَ حُقُبًا)، فهكذا تبدأ رحلة سيدنا موسى عليه السلام في طلب العلم.

والمثير في الموضوع أن نبي اللّه عليه السلام كان لديه حافز وهمة كبيرتان لطلب العلم، إذ إنه قال للغلام إنه مستعد أن يمضي في هذا الموضوع لفترة زمنية تمتد من 80 إلى 100 سنة، وهذا يمكن أن نستشفه في كلمة (الحُقب) وهي التي تعني الفترة الزمنية الممتدة من ثمانين إلى مائة سنة،

وهذا أول أمر نتعلمه من هذه الآيات الكريمة، فالسعي للعلم لا يضاهى بزمان أو ثروة، فالعلم هو في حد ذاته ثروة، ولكن للأسف فإننا نجد وخاصة في هذا العصر أن التوجه نحو العلم والرغبة في التعلم يضمحل بين أفراد المجتمع، فتجد أبناءنا وبناتنا يتكاسلون حينما يُطلب منهم الذهاب إلى المدارس المكيفة والمزودة بكل وسائل الراحة، فما بالنا ونحن نتحدث عن برامج التدريب والتعليم الخاصة بالموظفين والكبار، فقد وجدنا أثناء الدورات التدريبية أن المتدربين يضجرون بعد مرور نصف ساعة أو بالكثير ساعة من التدريب والتعليم، حينئذ يبدأ اللعب بالهاتف الذكي والواتساب وما إلى ذلك، وعندما يقوم المدرب بالتنبيه على ذلك فإنه يكون وكأنه قد رماهم بسهام يخترق عقولهم، هنا تسأل نفسك كمدرب أو معلم أين الهمة والرغبة في التعلم ؟

ويمضي موسى عليه السلام في رحلته ويقابل الرجل الصالح في المكان الذي حدده اللّه سبحانه وتعالى، وهذا الرجل لا نعرف عنه إلا أنه رجل صالح، وإن كانت هناك الكثير من الأقوال حوله، إلا أن ما يهمنا هنا أنه رجل صالح، وأن سيدنا موسى عليه السلام أفضل منه في الكثير من الأمور، إلا أن – وهذا أمر آخر نتعلمه من الآيات الكريمة – إذ أنه ربما يكون من يقوم بتعلمينا أقل منا شأننا في بعض الأمور، إلا أنه حتمًا سيكون أعلم منا في أمور أخرى كثيرة، وهذا لا يعيب المرء، فكل إنسان لديه قدرة من العلم، وربما هذا القدر الخاص به نحن لا نعلم منها شيئًا، لذلك فإنه من العقل الراجح أن نتعلم منه ما يعلمه مهما كان قدره، وهذه هي التكاملية المطلوبة في المجتمع، ففي المجتمع لا يوجد إنسان أعلى وإنسان أقل، ولا توجد طبقات من البشر

أفضل من طبقات، فكل إنسان لديه ما ينقص الآخر، وليس من الخطأ أن نتعلم العلم من أيًا ما كان حتى لو كان أبنك أو ابنتك التي تعرف تشغيل الأجهزة الحديثة وأنت لا تعلم كيف تتعامل معها.

وتبين الآية الكريمة (65) أن هذا الرجل الصالح لا يمتلك العلم من ذاته وإنما لديه حظوة من اللّه سبحانه وتعالى أن أعطاه بعضًا من العلم الذي لا يعلمه أحد، لذلك ذهب إليه سيدنا موسى وقال له بكل أدب النبوة وأخلاقيات الأنبياء، بالأحرى طلب منه بكل رجاء وهدوء أن يسمح له أن يتبعه حتى يتعلم منه (قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)، إلا أن الرجل الصالح كان يعلم بما أتاه اللّه من علم إن سيدنا موسى عليه السلام لن يتمكن من الصبر على الأمور التي ستتجسد أمامهما أثناء الرحلة، لذلك وضع شرط كما ورد في الآية (70) والذي يقول فيها سبحانه وتعالى (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)، فإذن كان الشرط والعهد واضح ما بين الرجل الصالح وسيدنا موسى عليه السلام، لا سؤال عن أي أمر وحتى وإن كان سيدنا موسى عليه السلام يعتقد أنه خارج عن المألوف، وعلى هذا الأساس انطلقا في رحلتهما.

وهذا عادة ما نفعله أثناء الدورات التدريبية، أن نضع بعض الشروط البسيطة مثل عدم اللعب في الهاتف، أو كيفية ضبط الأسئلة والمناقشة ومثل ذلك، ومع ذلك فإن المتدربين يضجرون بعد حين من الوقت.

وأثناء الرحلة حدثت ثلاثة أمور، وهي كالتالي:

1. ركبا في سفينة لمساكين يعملون في البحر، فنقلوهم من ساحل إلى آخر، إلا أنه بدلاً من أن يكافئهم الرجل الصالح بمال أو بهدية قام بخرقها وتشويهها وترك فيها عيبًا.
2. وعندما نزلا من السفينة لقيا فتى وربما غلام أي صبي صغير ربما كان يلعب مع اقرانه الصبية، فقام الرجل الصالح من غير سبب ظاهر بقتل تلك النفس البريئة.
3. وبلغا في رحلتهما قرية، ومن الواضح أن أهلها ليسوا بكرماء، فلم يكرموا الضيوف، ومع ذلك قام الرجل الصالح بمكافئتهم بتصليح جدار على وشك السقوط، ومع ذلك لم يطلب منهم أي مقابل مادي أو معنوي.

يمكن أن يلاحظ ذلك التناقض الغريب في سلوكيات الرجل الصالح، فأصحاب السفينة على الرغم من أنهم قاموا بمد يد العون لهما وذلك بنقلهما من مكان إلى آخر، وهذا يبين لنا مدى كرمهم وحسن سلوكياتهم إلا أن الرجل الصالح لم يكافئهم إلا بخرق سفينتهم، وفي المقابل أصلح جدارًا مائلاً آيلاً للسقوط لأهل قرية بخلاء لا يكرمون الضيف ولا يحترمون الزوار، أليس ذلك تناقضًا واضحًا ؟ ثم ما ذنب ذلك الصبي أن يقتل هكذا بدم بارد ؟ أين الصلاح والتقوى من ذلك وهو الرجل الصالح الذي أرشد اللّه سبحانه وتعالى نبيه موسى عليه السلام بأن يتبعه حتى يتعلم منه ؟

أمور خارقة للطبيعة والعقل البشري المحدود، لذلك لم يستطع سيدنا موسى عليه السلام ذو الفطرة البشرية النقية أن يتقبلها، لذلك كان في كل مرة يعاتب الرجل الصالح ويسأله لماذا فعل ذلك ؟ وفي كل مرة يذكره

الرجل الصالح بالاتفاق الذي أبرم بينهما ألا يسأل عن شيء حتى يوضحه هو له.

يمكن أن يلاحظ أنه في المرة الأولى قال له (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) الآية 72.

وفي المرة الثانية قال (أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) الآية 75. ويمكن أن يلاحظ أن الرجل الصالح كان عتابه أشد إذ أضاف في المرة الثانية كلمة (لك)، وهذا نوعًا ما تشديد على العتاب والخطاب، وهذا يعني أنه يمكننا كمعلمين ومدربين وآباء وأمهات أن نشدد الخطاب ولكن بأسلوب مهذب مع طلابنا وأولادنا، وخاصة إن تكرر الخطأ مرة ومرات، فهذا من حق المعلم أو الأب أو الأم، وليس فيه أي خطأ تربوي.

تصل الرحلة إلى نهايتها بعدما يوضح ويفسر الرجل الصالح كل تلك الحوادث لسيدنا موسى عليه السلام، إذ يقول له في ختام الرحلة في الآية 82 (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا)، عندئذ يدرك سيدنا موسى بالدليل العملي والعلمي محدودية علمه وعلم البشر، وأنه فوق كل عالم عليم، مهما كان هذا الإنسان.

نتعلم من خلال تلك الآيات بعض الأمور التي نود أن نشير إليها باختصار، مثل:

1. التعلم المستمر والمستدام؛ فسيدنا موسى عليه السلام على الرغم من كبر سنه ومقامه، إلا أنه ذهب يتعلم حتى وإن بلغت رحلته أعوامًا وأعواما، فثروة العلم لا تقدر بثمن.

2. **أدب طلب العلم؛ فسيدنا موسى عليه السلام طلب من الرجل الصالح أن يسمح له بالمضي معه حتى يتعلم من بعض علمه، فالمعلم والمدرب سيدا الموقف لذلك من الأدب أن نحترمهما مهما كانا.**
3. **محدودية علم الإنسان؛ فالإنسان مهما كانت قدرته ودرجته العلمية إلا أنه محدود العلم، فهو لا يعلم إلا الجزء الذي تعلمه والجزء الذي قرأ فيه، أو الجزء الذي أخذ فيه الشهادة، لذلك فإنه من الواجب أن يستمر في التعلم. وهذا أمر مهم، لذلك فإنه على المعلم والمدرب أن يطور نفسه وخاصة في هذه الحقبة الزمنية إذ إن فضاء العلم مفتوح، فيستطيع الطالب أن يأخذ العلم من الكثير من المصادر، فالمعلم أو المدرب الذي يعتمد على المنهج الدراسي فقط في التعليم فإنه حتمًا ستأتي لحظة من الزمن ويقوم له أحد الطلبة أو المتدربين بإحراجه أمام الناس، وربما يقول له إنك لا تعلم شيئًا بطريقة أو بأخرى، فالمعلم يجب أن يتطور وأن يتعلم ولو بالتعلم الذاتي والشخصي، فلا يقول لنفسه إنه يحظى بالشهادة الفلانية فإن ذلك يكفيه، وهذا الكلام يمكن أن يسقط كذلك على الأطباء والمهندسين وغيرهم، فمهما كان علم الإنسان إلا أنه حتمًا سيأتي يوم سيجد من هو أعلم منه.**
4. **الخير المخفي؛ إننا كبشر نتذمر من كل أمر لا نعلم خفاياه وأسراره، والإنسان عدو لما لا يعلم، ولكن من الواضح من سياق القصة أن الكثير من الأمور التي نعتقدها شر يكمن خلفها الخير، فخرق السفينة وقتل الطفل، وإقامة الجدار وإن كانت في ظاهرها شر إلا أنها تحمل في طياتها الكثير من الخير الذي لا يعلمه إلا اللّه سبحانه، فقد يعتقد شخص أنه بزواجه من تلك المرأة سوف يجني الخير الكثير، ولكن قد**

نجد أن اللّه سبحانه قد منع تلك الزيجة، لذلك نتذمر ونبكي، ونعتقد أن اللّه سبحانه يعمل ضدها، ولكن ربما تكون تلك الزيجة وبالاً على حياتنا المستقبلية لذلك منعها اللّه سبحانه وهكذا في الكثير من الأمور.

5. وكان أبوهما صالحًا؛ فعل الصلاح الذي يقوم به الآباء سيستمر وينتقل من جيل إلى آخر، بغض النظر عن مرور الأجيال، فكلما قام الإنسان بعمل صالح فإن ذلك سيُدّخر وينتقل إلى أولاده بعد ذلك مهما طال الزمن.
6. فعل الأنبياء والفطرة الصحيحة؛ سيدنا موسى ربما لم يهتم بنفسه عندما خرق الرجل الصالح السفينة على الرغم من أنه موجود عليها فلم يقل – مثلاً – أخرقتها لتغرقنا وإنما قال (قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)، فاهتم بأهل السفينة ولم يهتم بنفسه، والأمر الآخر أن الأنبياء يرفضون قتل النفس أيًا من كان ذلك، فاستنكر عليه السلام قتل الغلام حتى وإن كان ذلك يناقض العهد الذي قطعه على نفسه ألا يسأل عن أي شيء.

هذه بعض الأمور التي يمكن أن نستشفها من هذه الآيات الكريمة، وبالطبع هناك أمور أخرى كثيرة لا تسعنا المساحة لأن نتداولها، وإنما نكتفي بذلك.